# جَمالُ الدِّين القفطِيُّ
## القاضي الأكرم
## (568 ـ 646هـ)

أَعزَّائي وأَحبائي:

جَمالُ الدِّينِ القفطِيُّ، الوَزيرُ الأَكرمُ، والنَّابِغةُ والقاضي الأَعظمُ، ذاكَ الّذي لَمْ يُماثلْهُ أَحدٌ مِنَ العُلماءِ في عَصرهِ كَرماً وعطاءً، وشَهامةً ونُبلاً، وحُبّاً للعلمِ ولاقتناءِ الكُتُب وشرائِها.

هو القَاضي ابْنُ القَاضي، المنْحدِرُ مِنْ أُسرَةٍ عَربيَّةٍ كَريمَةٍ ووَجيهةٍ، ومَعروفةٍ عَلَى مُسْتوى العَالَمِ الإِسْلاميِّ في ذَلِكَ العَصرِ، فَهو مِنْ بَيْتِ عَلمٍ وأَدَبٍ ودِينٍ ووَرعٍ وتَقوى.

وهو وَزيرُ حَلبَ، مَن ارْتَبطَ اسْمُهُ وعِلمُهُ بِهذهِ المدينَةِ، فَهوَ مِنَ الأَسماءِ الّتي لَمَعتْ في سَماءِ هَذهِ المدينةِ العريقَةِ على مَرِّ التَّاريخِ والعُصورِ، فَأَعْطاها كما أَعْطَتْهُ، وقَدَّمَ لَهَا أَمانَة العِلمِ والثَّقافَةِ والتَّاريخِ كما قَدَّمَتْ لَهُ الأمانَ والمَأوَى المكينَ، فَصارَ فيها عَزيزَ الجَانبِ، مَحمودَ الذِّكرِ، حَفيلَ الوِفادَةِ، ولاقَى مِنْ أُمرائِها وسَلاطينِها كُلَّ حَفاوةٍ وتَأييدٍ.

وهُوَ ما حَطَّ رِحالَهُ ـ بَعْدَ سَفَرٍ طَويلٍ، وتَنقُّلٍ بَيْنَ عِدَّةِ بُلدانٍ ـ في مَدينَةِ حَلَب، إِلَّا لِمَا

عَرَفَ عَنْها مِنْ ازْدِهارٍ وتَأَلُّقٍ في مِضمارِ العِلمِ والمَعرفَةِ، ولِمَا تَناهَى إِلَى عِلمِهِ مِنْ إِكرامِ أُمرائِها وسَلاطينِها للعُلماءِ حَتَّى أَصبَحتْ قبلَةَ العِلمِ في مَنطقَةِ شِمال سُوريا قد أَحاطَ العُلماءَ فيها الأَمانُ والاستقرار، وشَيءٌ مِنَ الحَصانَةِ العِلميَّةِ الَّتي أَباحَها حُكَّامُها لِلعُلماءِ الّذينَ وَفَدوا إِليها مِنْ مُختلَفِ البُلدانِ والأَصقاعِ.

وإِنَّ الّذي يُطالِعُ تَرجَمَةَ حَياةِ جَمالِ الدِّينِ القِفطيِّ يَجِد نَفْسَهُ أَمامَ مادَّةٍ عِلميَّةٍ زاخِرَةٍ واسِعَةٍ، حافِلَةٍ بِما يُعتَبَرُ مِنْ جَواهِرِ المعرفَةِ، ومِنْ كُنوزِ العِلمِ وخَزائِنِ الحِكمَةِ، الَّتي تجعلُ البَاحثَ الحَصيفَ يحارُ مِنْ جانبٍ مِنْ جوانبِ شَخصيَّةِ مَن يَبدأ بَحثَهُ ودراسَتَهُ. ويُدرِكُ عَنْ كَثبٍ أَنَّ كُتُبَ التَّاريخِ والسِّيَرِ تفيضُ فيضاً بِذكرِ حياةِ جَمالِ الدِّين القِفطيِّ ورِحلتِهِ العلميَّة ونِتاجِهِ الفِكريِّ والعِلميِّ، كَما يُدركُ حَقيقةً أَنَّ أَحداً مِنَ العُلماءِ الّذينَ عاصَروهُ، لم يَبْلغوا ما وَصَلَ إِليهِ مِنْ ذَكاءٍ ونباهَةٍ، وتقديرٍ وحَفَاوةٍ مِنَ الحُكَّامِ والعُلماءِ وعامَّةِ النَّاسِ.

فَمَنْ هُوَ جَمالُ الدِّينِ القِفطِيُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ عَليُّ بْنُ يُوسُفَ بْنِ إبراهيمَ بْنِ عَبْدِ الواحدِ بْنِ مُوسَى الشَّيبانيُّ القِفطِيُّ، المُكَنَّى بِجمَالِ الدِّينِ أَبي الحَسنِ القَاضي الأَكرمِ، وَزيرِ حَلَبَ، العَلَّامةِ المُؤَرِّخِ.

والقِفطِيُّ نسبَةً إِلى بَلدَةِ (قفط) في صَعيدِ مِصْرَ. وُلِدَ جَمالُ الدِّين في قفط سَنَة (568)

هجريَّةً في بَيْتِ عِلمٍ وأَدبٍ، فَكانَ والِدُهُ مِنْ كِبارِ العُلماءِ والأَعيانِ في بَلدَهِ، وكانَ قاضياً لُقِّب بِالقَاضي الأَشرفِ.

ويَرجِعُ نَسبُ جَمالِ الدِّينِ القِفطيِّ إِلى قبيلَةِ بَني شَيبانَ، إِحدَى القبائِلِ العَربيَّة العَريقَةِ والأَصيلَةِ الَّتي نَزَحَتْ مِنَ الكوفَةِ بِالعِراقِ إِلى مِصْرَ مُنْذُ أَوائِلِ الفَتحِ الإِسلامِيِّ لِمِصْرَ عَلَى يَدِ الصَّحابيِّ الجَليلِ والقائِدِ الإِسلاميِّ عَمرو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه.

انْتَشرتْ قَبيلةُ شيبانَ في مَناطقَ عَديدةٍ من بِلادِ مِصْرَ، واسْتوطَنَ بَعضُهُمْ في بَلدةِ قفط الواقِعةِ في صَعيدِ مِصرَ الأَعْلَى، والَّتي كانَتْ آنذاكَ إِحْدَى توابِعِ إِقليمٍ يُعرفُ بِالأَعمالِ القُوصيَّةِ نسبَةً إِلى مَدينَةِ قوص الّتي كانَتْ عاصِمَةً لِلإِقليمِ.

تَربَّى جمال الدِّينِ القِفطيُّ في بَيْتِ أَبيهِ تَربيَةَ العِلمِ والتَّقوى والصَّلاحِ، حَيثُ كانَ أبوهُ يوسُفُ بنُ إِبراهيمَ المُلَقَّبُ بِالقَاضي الأَشْرَفِ على قَدرٍ كبيرٍ مِنَ العِلمِ والفَضلِ والكَرمِ كما تحدَّثَ المؤرخونَ عَنْهُ، كَريماً فاضلاً وكاتباً لامعاً مُتَصرِّفاً بِضروبِ الإِنشاءِ، حَسَنَ الخَطِّ مُقرباً مِنْ سَلاطينِ عَصرِهِ الحُكَّامِ الأَيُوبيينَ، حَيثُ قَدروا مَكَانَتَهُ بينَ أَبناءِ قومِهِ، وأَنزلوهُ في صعيدِ مصرَ منزلاً كريماً، ووَلوهُ الأَعمَالَ القضائيَّةَ فيها لِثِقَتِهِم الشَّديدَةِ بِعِلمِهِ وإِخلاصِهِ في العَملِ.

كما كانَتْ والِدَةُ جَمالِ الدِّين القِفطيِّ، امرأةً صالحةً وحكيمةً على جانبٍ عظيمٍ مِنَ العِلمِ والنَّباهَةِ والذَّكاءِ أيضاً، كما وَصَفها المُؤَرخونَ: امرأَةٌ مِنْ باديَةِ العَربِ مِنْ قُضاعَةَ، صالحةٌ حَسَنَةُ العبادَةِ، فصيحةُ اللَّهجَةِ تحفظُ كثيراً مِنْ أشعارِ العَربِ وأَمثالِهِمْ وحِكَمِهِم.

نَشَأَ جَمالُ الدِّين القِفطِيُّ في بيئَةٍ علميَّةٍ، حَيثُ كانَتْ مدينةُ قوص الّتي تَتْبَعُ لها بَلدتُهُ قفط الّتي ولدَ فيها تَعجُّ بِالعَلماءِ والفقهاءِ والمُحدِّثين الّذينَ أَخَذَ يَتنَقَّلُ بينَهُمْ آخِذاً عَنْهُم العِلْمَ، إِلى جانبِ ثقافَتِهِ الّتي نَهلَها مِنْ عِلمِ أَبيهِ، واكتَسَبَها مِنْ بيت ذَويهِ الّذي كانَتْ تُعقَدُ فيهِ مجالِسُ العِلمِ والثقافةِ.

❁ ❁ ❁

ولَمْ يَكَدْ يَبْلغُ جَمالُ الدِّينِ أَربعَةَ عَشَر ربيعاً مِنْ عُمرهِ حَتَّى انْتَقَلَ للعيشِ مع أُسرتِهِ وأَبيه في مدينةِ القاهِرَةِ عَلى إِثْرِ خِلافٍ نَشَأَ بَيْنَ أَعيانِ وعُلماءِ بَلدتِهِ قِفْط، فَآثَرَ أَبوهُ السَّلامَةَ واتِّقاءَ الفِتنَةِ، فَانْتَقَلَ مع زَوجتِهِ وأَفرادِ أُسرتِهِ للعيشِ بِالقاهرةِ عاصِمَةِ البِلادِ.

ولا يَخفَى ما كانَتْ تَتَمتَّعُ بِهِ مَدينَةُ القَاهرةِ مِن ازْدِهارٍ حضاريٍّ وعلميٍّ في ذَلِكَ الوَقْتِ، إذ كانت مَركزاً لِلإشعاعِ العلميِّ والفكري والثَّقافي، كَثُرتْ فيه المساجِدُ والمَكتباتُ والمدارسُ والمَعاهِدُ العلميَّةُ والدِّينيَّةُ، كَما كانَتْ مَلاذاً وكعبَةً للعُلماءِ والفُقهاءِ والمُحدِّثينَ، وقَدْ كَانَ لِذَلِكَ الأَثر البالِغُ في نُضْجِ وتَبلْوُرِ ثَقافَةِ جَمالِ الدِّين القِفطيِّ، حَيثُ أَقْبَلَ بشَغفٍ على مَجالسِ العُلماءِ، وطَافَ على مكَتباتِ القاهِرَةِ، واجْتَهدَ في قِراءَة الكُتُبِ النَّادِرَة في مُختلَفِ العُلومِ والمَعارِفِ.

كَما حَدَثَ وَقتها أَنْ لاقَى والِدُهُ الحظْوَةَ والاحترامَ من سلاطينِ البِلادِ وهو يُقيمُ بِالقاهِرَةِ، فَأَسْنَدوا إليهِ الأَعمالَ الإداريَّةَ والقضائيَّةَ في بَعضِ المناطِقِ والمُدنِ والولاياتِ،

فَسافَرَ جَمالُ الدِّينِ مَعَ أبيهِ إلى عِدَّةِ مُدنٍ عربيَّةٍ وإسلاميَّةٍ، إلى الفِسطاطِ والقُدسِ، حَيْثُ عُيِّنَ والِدُهُ فيها والياً مِنْ قِبَلِ المَلكِ الأَيوبيِّ العَزيزِ بْنِ المَلكِ النَّاصرِ صَلاحِ الدِّين.

عَاشَ جَمالُ الدِّين القِفطي قِسْطاً مِنْ حياتِهِ في مَدينَةِ القُدسِ يُجالِسُ عُلماءَها ويَدرسُ على أَيديهِمْ، حَتَّى بَرعَ في الفِقهِ واللُّغَةِ، وصارَ له صِيتٌ حَسَنٌ بينَ أَهالي وسُكانِ بَيْتِ المَقدسِ، فَأَحَبَّهُمْ وأَحَبوهُ، وخَصوهُ بِالِاحترامِ والإجلالِ لمكانَةِ أبيه، ولِعلمِه وأَدَبِهِ الجَمِّ الّذي عُرِفَ بِه، وقَدْ عَرَضَ عَليه أَعيانُ بَيْتِ المقدسِ أَن يَتولَّى فيها أَحَدَ الأَعمالِ الإداريَّةِ والحُكوميَّةِ، وكَانَ مَنصباً مَرموقاً يُزيدُهُ في الوَجاهَةِ والنُّفوذِ والاحترامِ، لكِنَّهُ رفَضَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَلَّا يَتْركَ تحصيلَهُ العِلميَّ، ومجالَسةَ العُلماءِ، وقراءَتَهُ ومُطالَعَتَهُ في الكُتَبِ والمُصَنَّفاتِ الّتي كَانَ شَغوفاً بِها ومولَعاً في اقتنائِها.

وَلكِنْ، سَاقَت الأَقدارُ إليهِ ولأُسرتِهِ الرَّحيلَ عَنْ بَيتِ المَقدسِ بَعْدَ فتنَةٍ سياسيَّةٍ عَصَفَتْ بِها، فَاتَّجَهَ مَعَ أَبيهِ إلى مَدينَةِ حَرَّانَ الواقعَةِ في أَقصَى شمالِ الجزيرةِ بين العِراقِ وبلادِ الشَّامِ، ثُمَّ انْتَقلوا منها إلى مَدينَةِ ذي جبلةَ في بِلادِ اليَمَنِ.

أَقَامَ جَمال الدِّينِ القفِطيُّ في ذي جَبلةَ عَدَّة سَنواتٍ حَتَّى وَفاةِ أَبيهِ القاضي الأَشرفِ سَنَةَ (642) هجريَّةً، ثُمَّ انْتَقلَ مِنْها إلى مَدينَةِ حَلَبَ في شَمالِ سُوريَّةَ.

كَانَ جَمالُ الدِّينِ القِفطيُّ قَدْ سَمِعَ عَن الأمانِ والازْدِهارِ العِلميِّ والحضاريِّ ورَغَدِ العيشِ الّذي تَتمتَّعُ بِهِ مَدينةُ حَلبَ، وصَادَفَ وهُوَ يُقيمُ بِذي جبلَةَ رَجُلاً عالِماً مِنْ ذوي

النُّفوذِ عِنْدَ حُكام حَلَبَ الأَيوبيينَ وكانَ يُدْعَى «ميمونَ القَصريَّ» فَنَصَحَهُ بِالتَّوَجُّهِ إلى حَلبَ فَسافرا مَعاً.

عَاشَ جَمال الدِّينِ القِفطيُّ في حَلبَ آمِناً مُطْمَئِناً، يَتمتَّعُ بِوفرَةِ العَيشِ، مُغموراً بالنَّعيم المُقيمِ الَّذي لاقاهُ مِنْ أُمراءِ حَلبَ وأهلِها وسُكانِها وعُلمائِها، وأَكَبَّ على شراءِ الكُتبِ واقتنَائِها، وكَرَّسَ حَياتَه في حفظِ الكُتب وترتيبها، وصَارَ بَيتُهُ خَزانَةً عامِرَةً بالكُتُبِ، مِنْ أَشهرِ مَكتباتِ البِلادِ، يَفِدُ إليها الوَرَّاقونَ وتُجارُ الكُتبِ مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ البِلادِ والأَصقاعِ، ولمكانَتِهِ العلميَّةِ، وللصِّلاتِ الحَميدةِ الّتي كانَتْ بين أَبيهِ وبينَ سَلاطينِ بَني أَيوبَ، اختَارَهُ حاكمُ ولايةِ حَلبَ السُّلطانُ غازي بنُ صَلاحِ الدِّينِ الأَيوبيُّ وَزيراً وعوناً له في إِدارةِ أعمالِ البلادِ، وأَسنَدَ إِليهِ مَنصِبَ القضاء والإِشرافِ على أعمالِ القُضاةِ في الولايَةِ، فَكانَ صاحِبَ الحَلِّ والعقدِ فيها، وقَامَ بِهذا العمل حَقَّ قيامٍ.

وفي حَلبَ لُقِّبَ جمال الدِّينِ بِالقِفطيِّ، وبِالقاضي الأَكرمِ، وبوزيرِ حَلبَ. ولَقَدْ وَفَدَ إِليهِ كبارُ العُلماءِ والمُؤرخينَ في عَصرِهِ، كَابْنِ الأثيرِ المُؤَرخِ الشَهيد، وياقوت الحَمويِّ المُؤَرخِ والجُغرافيِّ النَّبيهِ. وقَد اسْتفادَ جَمالُ الدِّينِ القفطيُّ مِنْ مَعرفَتِهِ لياقوت الحمويِّ كَثيراً، حَيثُ جَلبَ لَهُ الكُتُبَ والمصَنَّفاتِ والمخطوطاتِ النَّادِرةَ مِنَ المُدنِ والبُلدانِ البَعيدةِ الّتي كَانَ يُسافِرُ إليها ياقوت ويحملُ منها الكُتبَ بائعاً وشارياً ومُتاجراً.

ومَعرفَةُ جَمالِ الدِّينِ لياقوت الحمويِّ، شَجَّعتْهُ على التَّأَليفِ والبَحثِ والتَّصنيفِ، وشَدَّتْهُ كَثيراً إِلى اعْتِزالِ العَملِ الحكُوميِّ، والاعتذارِ عَن المَنْصِبِ السِّياسيِّ المرموقِ الّذي كانَ يتمتعُ بِهِ ويَشغلُهُ.

فَبعدَ أَن عمل وَزيراً وقاضياً للسُّلطانِ غَازي، واسْتمرَّ يشغلُ هذا المنصبَ عِدَّة سَنواتٍ من سَنةِ (616) إلى (628) هجريَّة، ساسَ خلالها النَّاسَ بِالمرُوءَةِ والحكمَةِ أَحْسَنَ سياسَةٍ، وهُوَ يَخدمُهُمْ ويَرعَى لَهُمْ مَصالِحَهُم بالعَدلِ والإحسانِ، مُبتغياً مِنْ وراءِ ذَلِكَ مَرضاة اللهِ. . . قَدَّمَ اعتذارَهُ وإعفاءَهُ مِنَ هَذا العَملِ مِنْ سُلطانِ البلادِ ليتفرغَ تَفرُّغاً كاملاً لِلبَحثِ والتَّأليفِ واقتناءِ الكُتب الّتي كانَتْ أَهَمَّ شيءٍ له في هَذِه الدُّنيا، فَأجَابَهُ السُّلطانُ وهُوَ مُكرهٌ عَلَى طَلبِهِ، لِأَنَّهُ كانَ لا يَجدُ خيراً مِنْهُ في شُغلِ هذا المَنْصِبِ مِنْ بينِ أَعيانِ وعلماءِ عَصرِهِ.

أَوردَ ياقوتُ الحموَيُّ كثيراً مِنَ المواقفِ المُشرِّفَةِ والإنْسانيَّةِ لِجمالِ الدِّينِ القفطيِّ وهو يَعملُ وزيراً وقاضياً في البلادِ، وتحدَّثَ عَنْ كَرمِهِ العظيمِ وإكرامِهِ للعُلماءِ والأَدباءِ وإغداقِهِ الأَموالَ الكثيرةَ على الورَّاقينَ الّذين يجلبون إليهِ الكُتبَ والمخطوطاتِ، وإنْ دَلَّ على ذَلِك شيء فإنَّما على حُبِّهِ العارمِ لِلْعِلمِ، هذا الحُبُّ الّذي أَشغلَهُ وأَنْساهُ الزَّواجَ وإنجابَ الأَولادِ، ولكِنَّهُ تَزاوجَ مَعَ مَكتبتِهِ الزَّاخِرةِ بالكُتب النَّادرة، وأَنجبَ العديدَ مِنَ المُؤلفاتِ والمُصنَّفات الَّتي تُعتَبرُ مِنْ أَهَمِّ كُتبِ تُراثِنا العلميِّ والأَدبيِّ. وقَدْ أَشارَ المُؤَرخونَ إلى أَنَّ القِفطيَّ تَرَكَ أَكثرَ مِنْ خَمسةٍ وعشرينَ كتاباً مِنْ تَأليفِهِ وتصنيفِهِ في كَثيرٍ مِنَ الفنونِ والمَعارفِ، وكانَ أَهَمُّها:

**1** ـ أَخبارُ العُلماءِ بِأَخبار الحُكماءِ: وهو الكتابُ المَعروفُ بـ «تاريخِ الحُكماءِ»، وقد وَصَلَ إِلينا مُختَصراً وهو يحتوي على (414) ترجَمة لِلأَطبَّاءِ والنَّحويينَ والعُلماءِ مُنذُ أَقدمِ العصورِ حَتَّى أيَّامِ المُؤَلِّف.

**2** ـ إِنباهُ الرُّواةِ على أَنباهِ النُّحاةِ: وهو الكتابُ المعروفُ بـ «تاريخ النُّحاةِ»، ويَقعُ في أَكثرَ مِنْ جزءٍ، وهُوَ مِنَ المعاجِمِ الّتي جادَتْ بِها خزانَةُ الفكرِ والأدبِ العربيِّ والإسلاميِّ في العَصرِ الأَيوبيِّ، ويحتوي على ترجَمةٍ للعديدِ مِنْ علماء العرب والإسلامِ مِنْ أَقدمِ العصورِ إلى عَصر المُؤَلفِ، وقد اعتَنَى فيهِ بترجَمةِ حياةِ العُلماءِ مُعرِّفاً بِعلمِهِمْ وبَلدِهِمْ تعريفاً موسوعياً، وهو مرجعٌ هامٌّ في علمَي الجغرافيا والتَّاريخ.

**3** ـ مجموعةٌ مِنَ التواريخِ والكُتُب الثَّمينَةِ، منها:

ـ كتابُ أَخبار مِصرَ مِن ابْتدائِها إلى عصرِ صَلاحِ الدِّينِ.

ـ كتابُ تاريخِ المغربِ.

ـ كتابُ تاريخِ اليمَن.

ـ كتابُ تَاريخِ السَّلجوقيَّةِ.

ـ كتابُ أَخبارِ المصَنِّفينَ وما صنَّفوهُ.

توفي جمالُ الدِّين القِفطيُّ سَنةَ (646) هجريَّةً ودُفِنَ بِحلبَ، وأَوصَى بِكُتُبِهِ لِلنَّاصِرِ، وكانَتْ تُساوي وقْتها خمسينَ ألفَ دينارٍ.

## الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا حَطَّ القِفطيُّ رِحالَهُ في حَلَبَ؟

2 ـ ماذا أَحاطَ العُلماءَ في مدينَةِ حَلبَ؟

3 ـ إلى مَنْ يَرجِعُ نَسبُ جَمالِ الدِّينِ القفطيِّ؟

4 ـ كيفَ وصَفَ المُؤَرخونَ والِدةَ جمالِ الدِّينِ القفِطيِّ؟

5 ـ لِماذا انْتَقَلَ جمالُ الدِّين القفطيُّ مَعَ أَبيهِ إلى القاهرةِ؟

6 ـ كيفَ كانَ وضعُ جَمالِ الدِّين القفطيِّ في بيتِ المَقدسِ؟

7 ـ كيف عاشَ جَمالُ الدِّين القفطيُّ في حَلبَ؟

8 ـ ما أَشهرُ مُؤلفاتِ جَمالِ الدِّينِ القفطيِّ؟